الله أكبر !

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

جلستُ وقد مضى هَزِيعٌ من الليل ، أُهيِّء في نفسي بناءَ قصةٍ أُدِيرها على فتًى كما أُحِبّ ... خبيثٍ داعرٍ ، وفتاةٍ كما أحببتُ . . . عذراءَ مُماجِنة ؛ كِلاهما قد دَرَسَ وتخرَّج في ثلاثة معاهد : المدرسةِ ، والروايات الغرامية ، والسِّيما . وهو مصريٌّ مسلم ، وهي مصرية مسيحيّة . وللفتى هَنَاتٌ وسيئاتٌ لا يتنزَّه ولا يتورَّع ؛ وهو مِن شبابه كالماءِ يغلي ، ومِن أناقتِه بحيث لم يَبْقَ إلا أن تَلحقَه تاءُ التأنيث . . . وقد تشعّبتْ به فنون هذه المدنيّة ، فرفع اللهُ يَدَه عن قلبه لا يُبالي في أيِّ أوْدِيَتِها هَلَك . وهو طِلْبُ نساءٍ ، دأْبه التَّجْوالُ في طُرقهنّ ، يَتَتبَّعُهنّ ويتعرض لهنّ ، وقد أَلِفَتْه الطُّرق حتى لو تكلَّمتْ لقالت : هذا ضَرْبٌ عجيبٌ من عربات الكَنْس . . . !

وللفتاة تبرُّجٌ وتهتُّك ، يَعْبَثُ بها العبثُ نفسُه ، وقد أخرجتْها فنونُ هذا التأنُّثِ الأوربيّ القائمِ على فلسفة الغريزة ، وما يُسمّونه «الأدب المكشوف» كما يُصوّره أولئك الكُتّابُ الذين تَقَلوا إلى الانسانية فلسفةَ الشهوات الحرّة ، عن البهائم الحرة . . ! فهي تَبْرُزُ حين تَخرج من بيتها ، لا إلى الطريق ، ولكن إلى نظرات الرجال ؛ وتَظهر حين تظهر ، مُصوَّرةً لا بتلوين نفسِها مما يجوز وما لا يجوز ، ولكن بتلوين مِرآتِها مما يُعجِب وما لا يُعجب

وكِلا اثنيهما لا يُقيم وزناً للدين ، والمسلمُ والمسيحيُّ منهما هو الاسمُ وحده ؛ إذ كان مِن وَضْعِ الوالدين رحمهما الله ! والدِّين حرّيّة القَيد لا حرّيةُ الحرية ؛ فأنتَ بعد أن تُقيِّد رذائلَك وضَرَاوتَك وشرَّك وحيوانيّتك — أنت مِن بعد هذا حرٌّ ما وَسِعَتْك الأرضُ والسماء والفكر ؛ لأنك من بعد هذا مُكمِّلٌ للانسانيّة مستقيمٌ على طريقتها . ولكن هَبْ حِماراً تَفَلْسَفَ وأراد أن يكون حراً بعقله الحماريّ ؛ أي تقرير المذهب الفلسفيّ الحماريّ في الأدب . . . فهذا إنما يبتغي إطلاقَ حريته ، أي تسليطَ حِماريّتِه الكاملة على ما يتصل به من الوجود

وتَمضي قصّتي في أساليبَ مختلفةٍ تَمتَحِن بها فنونُ هذه الفتاةِ شهواتِ هذا الفتى ، فلا يَزال يَمشي مِن حيث لا يَصل ، ولا تزال تمنعه من حيث لا تَردّه ؛ وما ذلك من فضيلةٍ ولا امتناع ، ولكنها غريزةُ الأنوثة في الاستمتاع بسلطانها ، واثباتها للرجل أن المرأة هي قوّةُ الانتظار وقوّةُ الصبر ، وأن هذه التي تحمل جنينها تسعة أشهر في جوفها ، تُمسِك رغبتَها في نفسها مدّةَ حَملٍ فكريٍ إذا هي أرادت الحياةَ لرغبتها ، ليكون لوقوعها وتحقُّقها مثلُ الميلاد

ولكنّ الميلادَ في قصتي لا يكون لرذيلة هذه الفتاة ، بل لفضيلتها . فان المرأة في رأيي — ولو كانت حياتُها محدودةً من جهاتها الأربع بكبائر الاثم والفاحشة — لا يَزال فيها من وراء هذه الحدود كلها قلبٌ طبيعته الأمومة ، أي الاتصالُ بمصدر الخلق ، أيْ كلُّ فضائل العقيدة والدين ؛ وما هو إلا أن يتنبه هذا القلبُ بحادثٍ يتّصل به فيبلغُ منه ، حتى تتحوّلَ المرأة تَحوُّلَ الأرضِ من فصلها المقشعرّ الجديب ، إلى فصلها النضرِ الأخضر

ففي قصتي تُدْعِنُ الفتاةُ لصاحبها في يومٍ قد اعترتها فيه مخافةٌ ونزل بها همٌّ وكادتها الحياةُ مِن كيدِها ؛ فكانت ضعيفةَ النفس بما طرأ عليها من هذه الحالة . وتخلو بالفتى وفكرُها منصرِفٌ إلى مَصدر الغيب ، مؤمّلٌ في رحمة القدَر . ويَخلبها الشابُّ خلابَةَ رُعُونته وحبه ولسانِه ، فيعطيها الألفاظَ كلها فارغةً من المعاني ، ويُقرُّ بالزواج وهو مُنطوٍ على الطلاق بعد ساعة . فاذا أوشكتِ الفتاةُ أن تُصرَعَ تلك الصرعةَ دوّى في الجوّ صوتُ المؤذّن : « الله أكبر ! »

وتُنْصِتُ الفتاةُ في قلبها ، وتتّصل بهذا القلب روحانيّةُ الكلمة ، فتقعُ الحياةُ السماويّة في الحياة الأرضية ، وتنتبه العذراءُ إلى أن الله يَشهدُ عارَها ، ويَفْجَؤُها أنها مُقْدِمةٌ على أن تُفْسِد من نفسها ما لا يُصلِحه المستحيلُ فضلاً عن الممكن ، وترنو بعينِ الفتاةِ الطاهرة من نفسها إلى جسمٍ يَبوزِ ايست هي تلك التي هي ؛ وتنظر بعين الزوجة من صاحبها إلى فاسقٍ ليس هو ذاك الذي هو ؛ ويَخْلى لها المكانُ في قلبها

المفطورِ على الأمومة – حكايةً تثور منها وتشمئزّ ؛ ويَصرخ الطفلُ المسكينُ صرختَه في أذنها قبل أن يُولَد ويُلقَى في الشارع . . . !

الله أكبر ! صوتٌ رهيبٌ ليس من لغة صاحبها ولا من صوته ولا من خِبثته ، كأنما تفرغ السماءُ فيه مِلءَ سحابةٍ على رِجْسِ قلبها فتُنقيه حتى ليس به ذرّةٌ من دَنَسِهِ الذي ركِبَهُ الساعة . كان لصاحبها في حِسّ أعصابها ذلك الصوتُ الأسودُ المنطفئ المبهم ، المتلجلجُ بما فيه من قوّة شهواته ؛ وكان للمؤذّن صوتٌ آخر في روحها ؛ صوتٌ أحمر مشتعلٌ كمَعْمَعَةِ الحريق ، مُجَلْجِلٌ كالرعد ، واضحٌ كالحقيقة ، فيه قوّةُ الله !

سمعتْ صوتَ السلسلة وقَعْقَعَتَها تُلوَى وتُشَدّ عليها ، ثم سمعتْ صوتَ السلسلة بعينها يُكسَر حديدُها ويتحطّم

كانت طهارتُها تختنق فنفذتْ إليها النسمات ؛ وطارت الحمامةُ حين دعاها صوتُ الجوّ ، بعد أن كانت أسَفّتْ حين دعاها صوتُ الأرض . طارت الحمامة ، لأن الطبيعة التفتتْ فيها لفتةً أخرى .

ويكرر المؤذّن في ختام أذانه : « الله أكبرُ الله أكبر ! » فإذا . . .

* * *

وتَبَلّدَ خاطري فوقفتُ في بناء القصّة عند هذا الحد ، ولم أدرِ كيف يكون جوابُ « إذا . . . » فتركتُ فكري يعمل عَمَله كما تُلْهِمه الواعيةُ الباطنة ، ونِمْتُ . . .

ورأيتُ في نومي أني أدخل المسجد لصَلاة العيد وهو يعجُّ بتكبير المُصَلين : « الله أكبرُ الله أكبر ! » ولهم هديرٌ كهديرِ البحر في تَلاطُمِه . وأرى المسجدَ قد غصّ بالناس فاتّصلوا وتلاحموا ؛ تجدُ الصفّ منهم على استوائه كما تجد السطرَ في الكتاب ، ممدوداً محتبكاً ينتظمه وَضْعٌ واحد ، وأراهم تتابعوا صفاً وراء صفّ ، ونَسقاً على نسق ، فالمسجد بهم كالسُنْبُلة مُلئتْ حباً ما بين أوّلها وآخرها ؛ كلُّ حبة هي في لِفٍّ من أهلها وشملها ؛ فليس فيهن على الكثرة حبةٌ واحدة تميّزُها السنبلةُ فَضلَ تميز ، لا في الأعلى ولا في الأسفل

وأقف متحيراً متلدداً ألتفتُ ههنا وههنا ، لا أدرى كيف أخلُصُ إلى موضع أجلس فيه ؛ ثم أمضى أتخطى الرّقاب أطمعُ في فُرْجةٍ أقتحمها وما تنفرج ، حتى أنتهيَ إلى الصفّ الأوّل ؛ وأنظرُ إلى جانب المحراب شيخاً بادِناً يملأ موضع رَجلين وقد نَفح منه ريحُ المسك ، وهو في ثيابٍ من سُندُسٍ خُضر . فلما حاذيته جَمع نفسه وانكمش ، فكأنما هو يُطوى طياً ، ورأيتُ مكاناً وَسِعني فحططتُ فيه إلى جانبه وأنا أعجبُ للرجل كيف ضاق ولم أُضيِّق عليه ، وأين ذهب نِصفه الضخم وقد كان بعضه على بعضه زِيَماً على زِيَمٍ وامتلاءً على امتلاء

وجعلتُ أحدُسُ عليه ظني ، فوقع في نفسي أنه مَلك من ملائكة الله قد تمثل في الصورة الآدمية فاكتتم فيها لأمرٍ من الأمر

وضجّ الناسُ : « الله أكبرُ الله أكبر ! » في صوت تقشعرّ منه جلودُ الذين يخشون ربّهم ، غير أن الناس مما ألِفوا الكلمة ومما جهلوا من معناها — لا يسمعونها إلا كما يسمعون الكلام . أما الذى إلى جانبي فكان ينتفض لها انتفاضةً رَجّتني معه رَجاً ، إذ كنت ملتصقاً به مُناكباً له ؛ وكأن المسجد في نفضه إياناً كان قطاراً يجري بنا في سرعة السحاب ، فكلُّ ما فيه يرتجّ ويهتزّ . ورأيتُ صاحبي يَذْهل عن نفسه ، ويتلألأ على وجهه نورٌ لكل تكبيرة ، كأن هناك مصباحاً لا يزال ينطفئ ويشتعل ؛ فقطعتُ الرأي أنه من الملائكة

ثم أقيمت الصلاةُ وكبّر الأمام وكبر أهلُ المسجد ، وكنتُ قرأتُ أن بعضَهم صلّى خلف رجلٍ من عظماء النفوس الذين يعرفون الله حقّ معرفته ؛ قال : فلما كبّرَ قال : « الله » ثم بُهتَ وبقى كأنه جسَدٌ ليس به رُوح من إجلاله لله تعالى ؛ ثم قال : « أكْبَرْ » يَجْزِم بها جزماً ، فظننتُ أن قلبي قد انقطعَ من هيبة تكبيرِه . قلتُ أنا : أمّا الذى الى جانبي فلما كبرَّ مدّ صوته مدّاً ينبثق من روحه ويستطير ، فلو كان الصوتُ نوراً لملأ ما بين الفجر والضُحى

* * *

وعرفتُ والله من معنى المسجد مالم أعرف ، حتى كأني لم أدخله من قبل ، فكان هذا الجالسُ الى جانبي كضوء المصباح في المصباح ، فانكشفَ لي المسجدُ في نوره الرُّوحيّ عن معانٍ أدخلتْني من الدنيا في دُنيا على حِدَة . فما المسجدُ بناءً ولا مكاناً

كفيره من البناء والمكان ، بل هو تصحيحٌ للعالم الذى يموج من حوله ويضطرب ؛ فان فى الحياة أسبابَ الزيغ والباطل والمنافسة والعداوة والكيد ونحوها ، وهذه كلها يمحوها المسجد إذ يجمع الناسَ مراراً فى كل يوم على سلامة الصدر ، وبراءة القلب ، وروحانيّة النفس ؛ ولا تدخله إنسانيةُ الانسان إلا طاهرة منزّهة مُسْبِغَةً على حدود جسمها من أعلاه وأسفله شعارَ الطهر الذى يُسمَّى الوضوء ، كأنما يغسل الانسانُ آثار الدنيا عن أعضائه قبل دخوله المسجد

ثم يستوى الجميعُ فى هذا المسجد استواءً واحداً ، ويقفون موقفاً واحداً ، ويخشعون خشوعاً واحداً ، ويكونون جميعاً فى نفسيّة واحدة ؛ وليس هذا وحده ، بل يَخِرُّون الى الأرض جميعاً ساجدين لله ، فليس لرأسٍ على رأسٍ ارتفاع ، ولا لوجهٍ على وجهٍ تميز ؛ ومن ثمّ فليس لِذاتٍ على ذاتٍ سلطان . وهل تُحقّق الانسانيةُ وحدتَها فى الناس بأبدعَ من هذا ؟ ولعمرى أين يجد العالَمُ صوابَه إلا ههنا ؟

فالمسجد هو فى حقيقته موضعُ الفكرةِ الواحدةِ الطاهرة المصحِّحةِ لكلّ ما يَزيغُ به الاجتماع . هو فِكرٌ واحدٌ لكل الرؤوس ؛ ومن ثمّ فهو حلٌّ واحد لكلّ المشاكل ، وكما يُشقّ النهر فتقف الأرضُ عند شاطئيه لا تتقدم ، يُقام المسجدُ فتقف الأرض بمعانيها الترابيّة خلف جدرانه لا تدخله

* * *

وما حركةٌ فى الصلاة إلا أوّلها « الله أكبر » وآخرها « الله أكبر » ؛ ففى ركعتين من كلّ صلاة — إحدى عشرة تكبيرةً يجهر المصلون بها بلسان واحد ؛ وكأنى لم أفطن لهذا من قبل ، فأىُّ زمامٍ سياسىٍّ للجماهير وروحانيّتها أشدُّ وأوثقُ من زمام هذه الكلمة ؟

* * *

ولما قُضيت الصلاةُ سلمتُ على المَلَك وسلم علىّ ، ورأيته مقبلاً محتفياً ، ورأيتنى أثيراً فى نفسه ، وجالت فى رأسى الخواطر فتذكرتُ القصة التى أريد أن أكتبها ؛ وأن المؤذن يكرر فى خاتمة أذانه : « الله أكبرُ الله أكبر » فاذا . . . . .

وقلت لأسألنّه ، وما أعظم أن يكون فى مقالتى أسطرٌ يُلهمها مَلَك من الملائكة ! ولم أكد أرفع وجهى إليه حتى قال :

« فاذا لطمتان على وجه الشيطان ؛ فولّى مُدبراً ولم يُعقّب ؛ ووضعتِ الكلمةُ الآلهيةُ معناها فى موضعه من قلب الفتاة ، فلأياً بلأىٍ ما نجت

إن الدين فى نفس المرأة شعورٌ رقيق ، ولكنه هو الفولاذُ السميكُ الصلبُ الذى تُصفَّح به أخلاقها المدافِعة

الله أكبر ! أتدرى ماذا تقول الملائكة إذا سمعت التكبير ؟ إنها تنشد هذا النشيد :

* * *

بَينَ الوقتِ والوقتِ من اليوم تَدُقُّ ساعةُ الاسلام بهذا الرنين : الله أكبرُ الله أكبر ، كما تدقّ الساعةُ فى موضعٍ ليتكلمَ الوقتُ برنينها

* * *

الله أكبر . بين ساعاتٍ وساعاتٍ من اليوم ترسل الحياةُ فى هذه الكلمة نداءها تهتف : أيُّها المؤمن ، إن كنتَ أصبتَ فى الساعات التى مضتْ ، فاجتهدْ للساعات التى تتلو ؛ وإن كنتَ أخطأتَ ، فكفّرْ وامحُ ساعةً بساعة ؛ الزمنُ يمحو الزمن ، والعملُ يُغيّر العمل ، ودقيقةٌ باقيةٌ فى العمر هى أملٌ كبير فى رحمة الله

* * *

بين ساعاتٍ وساعات ، يتناول المؤمنُ ميزانَ نفسه حين يسمع : الله أكبر . ليعرف الصحّةَ والمرضَ من نيّته ؛ كما يضعُ الطبيبُ لمريضه بينَ ساعاتٍ وساعاتٍ ميزان الحرارة

* * *

اليومُ الواحد فى طبيعة هذه الأرض عمرٌ طويلٌ للشرّ ، تكاد كلُّ دقيقةٍ بشرّها تكون يوماً مختوماً بليلٍ أسود ؛ فيجب أن تقسمَ الأنسانيةُ يومها بعدد قارّات الدنيا الخمس ، لأن يومَ الأرض صورةٌ من الأرض . وعند كلّ قسم : من الفجر ، والظهر ، والعصر ، والمغرب ، والعشاء ، — تصيح الأنسانيةُ المؤمنةُ مُتنبّهةً نفسَها : الله أكبر ، الله أكبر

* * *

بين ساعات وساعات من اليوم يَعرِض كلّ مؤمن حسابَه ، فيقوم بين يدَى الله ويرفعه إليه . وكيف يكون من لا يزال ينتظر طولَ عمرِه بين ساعاتٍ وساعات — الله أكبر..